كما ورثتها من مبشّرها الاوّل اوغسطين رئيس اساقفة كنتربري وتلميذ البابا غريغوريوس الكبير رسول الانكليز

الالفاظ السحريّة

نظر للأب لويس شيخو اليسوعيّ (تابع)

٣ الاخاء

ما أحلى اسم الاخ على لسان من عرف المؤاخاة وعاش في رفقة الصديق الصدوق الذي يُنزل نفس صاحبه بمنزلة نفسه فلا يدّخر وسعًا في خدمته والافراج عن بلائه ومدّ ايدي المساعدة اليه في كل حاجاته حتى يضحّي النفس والنفيس في سبيل صالحه. فقد شبّه الكتاب الكريم الاخوين اللذين يعيشان في مثل هذا الوفاق بمدينة حصينة لا يقوى عليها العدوّ. او قل بالحري انهما جسمان في نفس واحدة كما وصف سفر الملوك صداقة داود ويوناثان حيث قال عن هذا (١ ملوك ١٨: ١) انّ نفس يوناثان تعلّقت بنفس داود واحبّهُ يوناثان كنفسه. وقال عن ذاك (٢ ملوك ١: ٢٦) انهُ احبّ يوناثان كحبّ الامّ لابنها الوحيد

ذلك هو الاخاء الذي وضع الخالق اساسهُ في قلوب البشر لمّا استلّ الامّ الاولى من ضلع آدم ثمّ جعل الابوين الاوّلين جذرًا تتفرّع منهُ الاسرة الاولى ثم العشيرة ثم القبيلة ثم الأُمّة ثم الشعوب كلّهم. فكفى بذكر الانسان لاصله ليسعى في مؤاخاة قريبه وملازمة ابناء جنسه. قد قال الشاعر الروماني تيرنسيوس بيتًا من الشعر يردّده كلّ من يشاء مناصفة البشر:

اني لانسانٌ انا وجميعُ ما جمٌّ بني جنسي اعدُّهُ من نفسي

على انّ هذا النظام الاوّل الذي كان الله انشأهُ لم يبقَ على اصله فانّ عدوّ جنسنا لم يُطق ذاك الوفاق « وهو من البدء قتّال الناس » (يوحنا ٨: ٤٤) فسعى بفصل ما جمعهُ الله من اوّل العالم فتغلّب في قلب الانسان حبّ الذات على حبّ القريب ونفث في

صدر قاين الحقد والشحناء حتى اودى بحياة شقيقهِ. وكذا فعل في بني يعقوب لمّا اوغر قلوبهم على يوسف اخيهم. وفي ايملك وفي ابيشالوم وغيرهم

وان كان الامر على هذا المنوال في شعب الله المختار فما قولك في بقيّة الامم حيث درست من القلوب وصاياهُ تعالى فانَّ شيطان البغض والعداوة مدَّ عليهم سيطرتهُ حتى انَّ تاريخهم ليس هو الّا سياق اخبار ضغائنهم وحروبهم فالتهم القويّ الضعيفَ واستعبد الغالبُ المغلوبَ واصبح معظم بني البشر في حوزة بعض المقتدرين تصرَّفوا بهم تصرُّف الاعراض يبيعونهم كالسِلَع ويجرون فيهم حكماً مطلقاً لا يستثنون منهُ حكم الموت

تصفَّح تواريخ القدماء بل تأمّل شرائع كبار المشترعين كليكرغوس وسولون وافلاطون وارسطو تجدهم لا يحسبون لكلّ ضعيف حساباً فانَّ الطفل والمرأة والعبد والغريب من نفاية الهيئة الاجتماعية لا يصيبون من الحظوظ والخيرات سوى ما لا بُدَّ منهُ ليخدموا مصالح الرجل كأنهم في يدهِ آلةٌ يستخدمها لاهوائهِ

وكما تجبَّر الافراد في قومهم كذلك ترفَّعت الشعوب وتشامخت على سواها حتى كادت تجعل جنسها من طينةٍ خاصة وعنصر مختار . أفلا ترى كيف كان اليونانيّ يدعو بقيّة الشعوب برابرةً او همجاً. ومثلهُ الروماني كان يعدّ امّتهُ في الفضل والشرف فوق جميع امم الارض حتى ارقاهم في سلّم المدنيّة كالفرس والكلدان والمصريين فكان يمنح كل الامتيازات للرومانيّ او المتجنّس بالجنسيّة الرومانيّة امّا ما سواهم فكانوا اجانب واعلاجاً لا يستحقّون الاعتبار . وكان اليهوديّ يلقّب من ليسوا يهوداً باسم « الغوييم » (גוים) اي الطوائف الغريبة . ومثلهم العرب كانوا ينبزون باسم العجم كل ما خالف جنسهم

فيا لله ما ابعد كلّ هؤلاء المتغطرسين عن روح المؤاخاة وشواعر الحبّ وعواطف الألفة. ولن بحثت عن سبب هذا الانقلاب الذي حدث في المجتمع الانسانيّ كشف لك الرسول المصطفى سبب الداء حيث وصف آثام الوثنيّة وفظائع المشركين ونسب الامر الى الجور والكبرياء وجحود الخالق فقال (روم ١: ٢٢-١٠٠): « زعموا انهم حكماء فصاروا حمقى واستبدلوا مجد الله الذي لا يدركهُ الفساد بشبه صورة انسان . . فلذلك أسلمهم الله الى شهوات قلوبهم . . . وبما انّهم لم يؤثروا ان يستمرّوا على معرفة

الله اسلمهم الله الى رأي مرذول حتى يعملوا ما لا يليق ممتلئين من كل اثم وشر وزنى وبخل وخبث مفعمين حسدًا وقتلًا وخصامًا ومكرًا واساءة نمامين مغتابين ممقوتين من الله شتامين متكبرين مفتخرين عاقين للوالدين لا ودّ لهم ولا عهد ولا رحمة » فمعظم هذه الآثام كما ترى تبطل الاخاء وتهضم حقوق القريب

وليس هذا الوصف ضربًا من المبالغة والغلوّ فان الآثار التاريخيـة التي أبقتها لنا الامم المختلفة تشهد على صحتها وتؤيدها بما لا يُنكر من الشواهـد . ولا غرو فانّ المؤاخاة لا ترسخ في ذهن البشر الّا اذا كانت مبنيّة على مبدإ ثابت وحكم واجب ألا وهو حبّ الله والعمـل بأوامره عزّ وجلّ فانزع حبّ الله من قلب الانسان فماذا ترى يبقى من المؤاخاة وحبّ القريب؟ لا شيء البتّة . لانّ الانسان قد طُبع على حبّ نفسه فان وجد ما يقوم بازاء هذا الحبّ الذاتيّ او يعاكسهُ او ينقصهُ فمن وقته يتحامل عليه تحامل العدوّ على عدوّه والاسد على فريسته حتى انّ الرومان كانوا ارسلوا هـذا المثـل بينهم : « انّ الانسان كالذئب لبني جنسه » (homo homini lupus) يشيرون الى عادة الذئاب التي تجتمع على المصاب منها بجرح او ضربة فتأكلهُ

ولا يقولنّ احد انّ الانسان عاقل ذو فهم وادراك فلا يشاء ان يفعـل بالغير ما لا يريد ان يفعل بهِ غيرهُ . نعم انّ هـذا المبدأ صحيح يدركهُ الانسان بمجرّد فهمهِ الّا انّ للانسان جواذب مخالفة للعقل تتنازعهُ وتكدّر صفاء عقلـهِ وقد قال العرب « انّ الهواء يعمي ويصمّ » فاذا لم يشعر الانسان برادع يردعـهُ وبولى قدير يقهرهُ استسلم لتلك الاهواء ولسكت صوت العقل وضحّى صوالح الغير لمنافعهِ الذاتيّة

ألا ترى ما حدث بالثورة الفرنسويّة التي نادى اصحابهـا اوّلًا بتلك الالفاظ السحريّة التي نحن في صددها اعني « الحريّة والمساواة والاخاء » فانّهـا اذ حادت عن اصول الدين ونبذت معرفة الله وسجدت لإلهـة العقل ما لبثت ان انجرت سيولًا من الدماء فخاضت بها واذهلت يقظائها العالم المتمدّن بل الشعوب الهمجيّة نفسها . فانّ انصار الثورة لم يكتفوا بقتل الذين لم يوافقوهم على آرائهم وخالفوا تعاليـمهم كالكهنة والاشراف بل صوّبوا سهامهم بعضهم الى بعض وكان كل من يفوز منهم اليوم يُسرع الى قتل رفقتهِ امس حتى صارت فرنسة منقعًا من الدم واسعًا

امّا اذا مكّنتَ في القلوب اساس الدين وخوف الله وحبّهُ فانّ المؤاخاة بين البشر

تلحق به وتنجم عنهُ كما تنبت الزهرة من كمّها والثمرة من شجرتها. وقد صرّح الله تبارك وتعالى بهذا الامر في الشريعة الموسويّة فانهُ بعد ان حتم على بني اسرائيل بان يعبدوا الرب إلههم ويحبّوهُ من كل قوى نفوسهم اوصاهم ان «يحبّوا قريبهم كنفسهم» (احبار ١٨:١٩) وما لا ينكر انّ الوصايا العشر كلّها ترجع الى هاتين الوصيّتين اعني حبّ الله وحبّ القريب وذلك ما قرّرهُ السيد المسيح في انجيلهِ الطاهر لمّا سأَلهُ احد علماء الناموس عن اعظم الوصايا (متى ٢٢:٣٩) فاجابهُ قائلًا: «احبب الربّ إلهك بكل قلبك وكل نفسك وكل ذهنك هذه هي الوصيّة العظمى والاولى. والثانية التي تشبهها أحبب قريبك كنفسك بهاتين الوصيتين يتعلّق الناموس كلّهُ والانبياء» . فبيّن بذلك ما يوجد من العلاقة بين تينك الوصيتين او قُلْ بالاحرى انهما وصيّة واحدة كما ذهب اليه القديس اوغسطينوس اعني وصيّة محبة الله التي منها يتفرّع حبُّ القريب لانّ من يحبّ الله يحبُّ ما لهُ وايُّ شيءٍ اقرب الى الله من مخلوقاتهِ الناطقة التي برأها على صورتهِ ومثالهِ . وقد قال القديس في محلّ آخر: «أحبب الله وافعل ما شئت» يشير بذلك الى انّ حبّ الله يشمل حبّ القريب ايضًا

*

ولمّا انتقض حبل الدين في العهد القديم وتضعضعت معهُ اسباب المؤاخاة صرخت الشعوب الى الله ليرسل مسيحهُ ويجبر ذاك الوهي المتوسع قائلة مع النبي اشعيا (٨:٤٥): «اقطري أيتها السماوات من فوق ولتمطر الغيوم الصدّيق . لتنفتح الارض ولتُثمر الخلاص ولتنبت البرّ» فلبّى الله دعوتها وترحّم على دائها المياه وارسل ابنهُ الوحيد ليحسمهُ ويشفيهُ

ليس في الانجيل المقدّس حقيقة راهنة ثابتة الاركان واضحة البيان كحقيقة الاخاء البشريّ اعلن بها السيد المسيح بعبارات تسيل رقّةً وبنى عليها دعائم لا يمكن نقضها . واوّل ما طبع الرب في قلوب تلامذتهِ وردّدهُ على مسامع الجموع المتقاطرة الى استماع كلامه انّهم ابناء ابٍ واحد وانّهم اخوة وذلك بعد ما حذّرهم من كبرياء الفرّيسيين ومرائهم قائلًا (متى ٢٣:٨-٩): «امّا انتم فلا تُدعوا معلّمين فانّ معلّمكم واحد وانتم جميعًا اخوة - ولا تدعوا لكم ابًا على الارض فانّ اباكم واحد وهو الذي في السماوات» وكثيرًا ما كان يلقّنهم هذه الحقائق ولمّا علّمهم الصلاة الربيّة افتتحها

بالدعاء الى ابيهم السماوي قائلًا : « ابانا الذي في السماوات » بل جعل ذلك الأب كمثالهم في الكمال قائلًا (متى ٥:٤٨) : « كونوا كاملين كما انَّ اباكم السماوي هو كامل ». وكذلك طلب منهم الَّا يقصروا محبّتهم الى اصدقائهم بل يبسطونها الى اعدائهم ايضًا فيعتبرونهم كاخوةٍ قائلًا (متى ٥:٤٤) : « احبُّوا اعداءكم واحسنوا الى من يبغضكم وصلُّوا لاجل من يعنتكم ويضطهدكم لتكونوا بني ابيكم الذي في السماوات لانهُ يطلع شمسهُ على الاشرار والصالحين ويمطر على الابرار والطالحين »

وهذه الابوَّة الالهية التي ينتسب اليها الانسان انَّما استحقَّها لهُ السيد المسيح بحلولهِ في ارضنا وبلبسه طبيعتنا . ولمَّا كان هو ابنًا لله بالجوهر اراد ان نشاركهُ ببنوَّتهِ فجعلنا اولادًا بالذخيرة لابيهِ السماوي . ولذلك قد يُسمّى نفسهُ بكرًا لاخوتهِ البشر كما قال الرسول في رسالتهِ الى اهل رومية (٨:٢٩) عن دعوة المختارين انَّهُ تعالى « سبق فحدَّد ان يكونوا مشابهين لصورة ابنهِ حتى يكون بكرًا بين اخوة كثيرين » وقال في رسالتهِ الى اهل كولسّي (١:١٣) عن السيد المسيح « انهُ صورة الله الغير المنظور وبكر كلّ خلق »

فبهذه البكورة الشريفة صار عظمًا من عظامنا ولحمًا من لحمنا لانهُ « اذ قد اشترك الابناء في الدم واللحم اشترك هو كذلك . . . فصار شبيهًا باخوتهِ في كل شيءٍ » (عبر ٢:١٤—١٧) لم يستثنِ من شبههِ « الَّا الخطيئة » (عبر ٤:١٥) . ولهذا لم يستحِ ان يدعو الابرار اخوة (عبر ٢:١١) وقد جاء في الانجيل الطاهر (متى ١٢: ٤٩—٥٠) انهُ سمَّى التلاميذ اخوتهُ ثم عمَّم هذا الاسم لكل الصالحين لمَّا اردف قائلًا : « لانَّ كلَّ من يعمل مشيئة ابي الذي في السماوات هو اخي واختي وامي » . وقد دعاهم بهذا الاسم لمَّا قام من بين الاموات بعد ان تمجَّدت طبيعتهُ البشريَّة واكتست بخواصّ الارواح النورانيَّة وذلك لمَّا ظهر لمريم المجدليَّة وامرها قائلًا (يوحنا ٢٠: ١٧) : « امضي الى اخوتي وقولي لهم انّي صاعد الى ابي وابيكم والهي والهكم »

فيا ليت شعري أكان يمكن ابن الله ان يبني الاخاء بين البشر على ركن اوطد من هذا فانهُ اوقع ثمَّةَ موقع العروة الوثقى بين ابناء الله فلم يَعُد احد يستطيع ان ينبذ مؤاخاة قريبهِ الَّا بنبذهِ إخاء السيّد المسيح . ولذلك تراهُ يكرّر على مسامع تلاميذهِ وصيَّة المحبة بينهم حتى جعلها وصيَّتهُ الخاصَّة فقال لهم (يوحنا ١٣:٣٤) :

« اني أُعطيكم وصية جديدة ان يحبّ بعضكم بعضاً وان يكون حبكم كما احببتكم انا» ولمّا بلغ حبُّ السيّد الى انهُ ضحّى نفسهُ لاجل اخوتهِ فرض عليهم ايضاً ان يحذوا حذوهُ في تضحية نفوسهم في سبيل القريب . قال الرسول يوحنا في رسالتهِ الاولى (٣:١٤—١٧): « قد علمنا انّا انتقلنا من الموت الى الحياة لأنّا نحبُّ الاخوة ومن لا يحبُّ اخاهُ فانهُ يبقى في الموت . وكل من يبغض اخاهُ فهو قاتل وتعلمون ان كل قاتل ليست لهُ حياةٌ ابديّة تحلُّ فيه . بهذا قد عرفنا المحبة انَّ ذاكَ (اي المسيح) قد بذل نفسهُ من اجلنا فيجب علينا ان نبذل نفوسنا من اجل الاخوة »

لا مراء انَّ المسيحيين الاوَّلين حفظوا هذه الوصاة ولزموا المؤاخاة بينهم في كل آن حتى كانت محبتهم دليلًا عليهم فاذا رآهم غيرهم هتفوا: « ما اعظم مودّة هؤلاء بعضهم لبعض » . وكانت تلك المحبة تتناول كل البائسين على اختلاف اجناسهم واديانهم يرون في الجميع صورة الخالق فيمدُّون اليهم يد المساعدة و يحسنون اليهم في حاجاتهم

وقد ورثت الكنيسة الكاثوليكية تلك فريضة المحبة من سيّدها وقدّيسيها فلم تزل في كل آن معروفة بنشر التودُّد والمؤاخاة بين كل الشعوب وبملازمة كل اعمال الرحمة نحو المنكوبين فايُّ بلاء لم تسدهُ او ايّ داء لم تعالجهُ او اي فساد لم تصلحهُ . فكفى شاهدًا على همّتها تلك الطوائف الرهبانية التي تصرف عنايتها في تربية الصغار واهتمامها بالايتام وتمريض المرضى وخدمة البُرص والمجانين والموبوئين والعَجَزة يقوم بحاجاتهم قوم من الرهبان والراهبات ضحّوا في سبيل قريبهم كلّ ملاذ الحياة وكافّة الآمال الزمنيّة من جاه وغنى ومراتب عملًا بقولهِ تعالى (متى ٢٥ : ٤٠): « كل ما فعلتموهُ باحد اخوتي هؤلاء الصغار فبي فعلتموهُ »

هذه المؤاخاة الصحيحة التي لا تكتفي ببعض الكلمات الفارغة بل تظهر في العمل وتتبيَّن في قضاء الحاجات وتفضّل الخير العامّ على المنافع الخاصّة وتسعى في جمع القلوب واصلاح ذات البين

وقد امتدّت تلك اصول الاخاء المبنيّة على قواعد الدين المسيحيّ الى الحكومات المدنية ولاسيما دول القرون الوسطى فلانت بها الاخلاق وائتلفت القلوب وزال الاستبداد ونشأت في الاجيال الاخيرة الدول الكاثوليكية التي نشرت أعلام العدل وخفّفت

اعباء السلطة المطلقة فشعرت الرعيـة بقواها وعرفت فضل الاتحاد فألّفت الجمعيّات وشكّلت الشركات التجاريّة والصناعيّة والفنيّة فنهضت بذلك الامم من خمولها وترقّت احوالهـا وزادت ثروتها. ولولا انّ اصحاب الثورة تعرّضوا لتلك الاصلاحات وغلّبوا الفوضى وقلبوا الامور ظهراً لبطن لتوطّدت اركان الهيئـة الاجتماعية واصبحت كل دولة كعائلة تعيش كل افرادها بالالفة والاخاء

والدول المتمدّنة في عهدنا ترمي الى هذه الغاية المرغوبة وتسعى في تحقيق هـذه الامنية . وقد وضعت لتوطيـد روح الاخاء العام عدّة وسائط كالمؤتمرات الدولية والمفاوضـات العموميّة ومجالس التحكيم وغير ذلك ممّا يقرّب القلوب ويزيل النفور ويبطل المنازعات

وكانت بعض الدول قد تأخرت نوعاً في مجاراة اهـل التمدّن العصري كروسيّة والعجم ودولتنا العلية

الّا انّ الريح التي هبّت في البلاد الاوربية ونسفت الظلم والاستبداد نفخت ايضاً في بلاد الشرق فروّحت الارواح وانعشت النفوس فيا ليتها لا تتجاوز طور الانصاف وحدود الحكمة فتُبيد فقط جراثيم البغض وتفكّ رقبة الاستعباد وتبطل المظالم الفاشية في العباد. فتنجبر القلوب من اصداعها وتكلّم من جروحها وتشفى من اوجاعها

لعمري لو تروّى العقلاء من اهـل الطوائف الذين لهم النفوذ في مللهم لوجدوا اسباب الوفاق اوفر من دواعي الشقاق فضـلاً عمّا ينجم عنها من الفوائد للعموم. ألا ترى ان الذين وُلدوا في تخوم واحدة ونشأوا في تربة واحـدة واستنشقوا هواء وطن واحد واندمجت افكارهم بمفاوضة السنتهم الوطنيّة وسعوا وراء مصالح متشابهة هم احرى بالاتفاق واجدر بالمؤاخاة. واقد كفانا شقاقنا السابق وتفرّق كلمتنا في ما مضى فانّ هـذه الضغائن كادت تطمس معالمنا وتمحو آثارنا لأن كل بيت ينقسم على نفسه يخرب كما يقول الربّ فلنمدّنّ بعضنا الى بعض ايدي المصافحة ونضمّنّ القوى بالاتحاد فلا نلبث انّ نرى بلادنا تعود الى ازدهارهـا وعمرانها فتُصبح جامعةً بين خصب التربة وشمل الامان بفضل الاخاء بين اهل الاوطان ونردّد آية النبي داود (في الزبور ١٣٢ : ١) : « ما أطيب وما ألذّ ان يسكن الاخوة معاً »